رسالة المربى

« ظهور المدرسة ، الطريقة النفسية والمنطقية ، التقاليد »

للاستاذ كمال السيد درويش

إذا كانت رسالة المربى فى الحياة كما نراها هى المحافظة على سلامة الاتجاه الطبيعى نحو التعليم ، فإن ذلك الكلام يحتاج إلى المزيد من التوضيح . والواقع أن هذه الرسالة على بساطتها الظاهرة تستدعى مسئوليات جمة ، وتتطلب مجهودات كبيرة ، ولكنها إلى جانب ذلك جديرة بأن تحتل أسمى مكان وبأن تصبح المثل الأعلى للجميع

إن بساطة تلك الرسالة وسهولة إدراكها تدعو إلى التساؤل عما إذا كان الإنسان قد سار عليها من قبل أم لا؟ وإذا كان لم يعمل بها فما هى الأسباب التى حالت بينه وبين ذلك ؟ وإذا أردنا العمل بها فما هى الأسس العلمية التى يستدعيها التطبيق ؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة جميعها تتطلب منا أن نسير مع عملية التربية منذ بدأت لنرى كيف سارت خلال العصور الماضية حتى وصلت إلى تلك الحالة التى وصلنا إليها اليوم؛ والتى لا يحسن السكوت عليها بأى حال

بدأ الإنسان يتعلم ـ كما ذكرنا ـ منذ أن ظهر على سطح الأرض مدفوعاً إلى ذلك بغرائزه المتعددة . فالانسان ـ مثلا ـ حينما كان يقطن الغابة ـ كان إذا ماشعر بالجوع اندفع يبحث عن طعامه داخل الغابة، حتى إذا ما رآه فى أعلى شجرة ممثلا فى ثمارها اضطر إلى التفكير فى كيفية الحصول عليه ، وفى تسلق الشجرة مثلا . وقد يفشل أو ينجح ؛ فاذا ما نجح تناول الثمرة ووجد فيها الغذاء الشهى أخذ يتعمد تسلق الأشجار جرياً وراء الثمار وإشباعاً لغريزة البحث عن الطعام

كانت حياة الانسان الأول فى الغابة إذن هى المدرسة التى يتعلم فيها . تعلم فيها كيف يتسلق الأشجار وكيف يقى نفسه شر الحيوانات الكاسرة ، كان يتعلم فيها بتلك الطريقة العملية ، طريقة التفاعل مع البيئة التى يعيش فيها .

وقد ظلت طريقة التعلم بالتفاعل مع البيئة قائمة حتى توالت الأجيال وتغيرت الأحوال وأصبحت لاتفى بالغرض المنشود حين بدأ الإنسان يلمس فشلها فبدأ يتخلى عنها إلى غيرها ، إلى طريقة أخرى تلائم الوضع الجديد : ذلك أن المعلومات أخذت تزداد وتنمو بمضى السنين . وأصبح عمر الأبناء عليلا لايتسع لممارسة خبرة الآباء والأجداد بطريقتهم العملية . ووجد الآباء أنفسهم مضطرين إلى تزويد أبنائهم بخبرات ومعلومات هى خلاصة مئات السنين والآلاف على أن يتم ذلك خلال سنوات الطفولة . عند ذلك أحسوا بالمشكلة ، مشكلة إعداد الأبناء الناشئين حتى يستطيعوا الانسجام مع هذا المجتمع الذى سيعيشون فيه ، لأنهم — وهم لايعلمون أى شىء عن أسلوب حياته أو طرق المعيشة فيه — طرق وأساليب قد تبلورت خلال مئات الآلاف من السنين ، فهل نكتفى بسنوات الطفولة بل سنوات العمر كله لهضم وتمثيل

الأخرى . والمسلمون الذين يحكمهم إلحادك ليسوا منفردين فى معركة الدين ، وإنما تحيطهم بالعطف والرعاية قلوب الملايين من إخوانهم فى الدين ، ولن تتخلى عنهم ، وإنا سنجاهد إلى جانبهم حتى نكفل لهم الحرية المطلقة فى الدين والرأى ، وتحررهم من الخوف

وإذا كان الأدباء فى الأمم كالرواد ، يمهدون الطريق الوعر الشائك للسائرين عليه وراءهم من أبناء جنسهم ، وكان رجال الدين فى الأمم كالمصابيح تبدد الظلام الذى قد يكتنف ذلك الطريق . ورجال الأزهر فى مصر ، باعتبارهم المؤسسة الإسلامية الخالدة التى تسهر على الإسلام والمسلمين فى ديارهم المتباعدة ، ورجال الدين الإسلامى فى الأقطار الإسلامية الأخرى ، مسؤولون عن وقف هذا الهندوكى السفيه عند حدود الذوق ، وعن منع استعمال كتابه القذر فى المدارس التى يتعلم فيها أبناء المسلمين وغير المسلمين ، بحكم مافيه من طعن لايليق أن يقال عن سيد المرسلين وخاتم النبيين ، بالوسائل التى تكفل ذلك ، دون اللجوء إلى أضعف الإيمان فى مقاومة هذا المنكر ، شأن العاجز الذى لايعرف المبادرة إلى العمل السريع . وإننا لمنتظرون

بغداد — على محمد سرطاوى

مالم يهضم إلا خلال القرون والأجيال ؟!

ظهرت المشكلة واعترضت الانسان فأيقن منذ ذلك أن إعداد الطفل الناشيء أمر خطير . وازدادت المشكلة تعقيداً بنمو الانسانية على مدى العصور حتى أصبحت في القرن العشرين تحمل في طياتها أعباء ما انقضى من القرون

وبدلا من أن يحاول الانسان حلها حين اصطدم بها نفض يديه منها وأحالها على غيره . أو لعله وجد حل للشكلة في أن يتركها ويتخلص منها بإحالتها على من يتخصص للنظر فيها ، على هؤلاء الذين عرفوا بين الناس من ذلك الحين بالمربين . وجاء المربي فوجد أمامه ثروة ضخمة هائلة من المعلومات المتراكمة ، ووقتا ضئيلا لا يكاد يصلح لممارسة شيء من تلك المعلومات في عقول الناشئين . وهل هناك طريقة أسرع وأضمن من طريقة الكلام؟ طريقة التلقين ؟ عند ذلك استخدمها وفرج بها وتكالب مع غيره من المربين على اتباعها .

وهكذا انتقلت التربية من وسيلة العمل والتفاعل مع البيئة إلى وسيلة الكلام والاستماع ؛ ومن ميدان الغابة أو ميدان الحياة إلى ميدان المدرسة بجدرانها الأربعة المحدودة . ولقد كان ظهور المدرسة أمرا حتميا للتخصص في عملية التربية ، إذ استطاعت منذ ظهورها فرض سيطرتها على التربية والتعليم حتى اليوم . فهل نجحت المدرسة ؟ هل أدت رسالتها أو حققت الغرض منها ؟

يدرك معظمنا شبح المدرسة ويلمس آثاره . يرهبها الصغير ويهرب منها الكبير ويتحمل مرارتها الصبور والمضطر ، ويكفي أن نذكر أن فقدان الميل الطبيعي نحو التعلم هو من بين ضحايا شبح المدرسة الجاثم فوق صدور الناشئين حتى نعلم إلى أي حد نجحت المدرسة أو فشلت في تحقيق رسالتها

قامت المدرسة ولا تزال تقوم حتى الآن بالدور الرئيسي في عملية التربية ، ولذلك تقع عليها معظم المسئولية ، مسئولية ابتعاد التربية عن هدفها ورسالتها كما يجب أن تكون . ولكي نتبين ذلك بوضوح سنقارن بين الطريقة النفسية في التربية والطريقة المنطقية

ذكرنا أن الإنسان تعلم أول ما تعلم في ميدان الحياة . شعر بالجوع فقام يبحث عن غذائه . سار في الغابة فشاهد حيوانا . أراد صيد الحيوان لطعامه فبدأ يهاجمه فرد عليه الحيوان بالمثل وعاد إلى كوخه جريحا جائعا . نظر إلى جرحه فأيقن فشل طريقته الأولى وبدأ يفكر في طريقة جديدة تجنبه الأخطار . وبدأ يجرب . أمسك فرعا من فروع الأشجار ليستعين به في الدفاع عن نفسه أثناء الصيد هذه المرة . وكسر الفرع ففكر في اتخاذ آلاته من مادة أصلب كالأحجار والصخور ساعدته في التغلب على عدوه والعودة بصيده في سعادة وهناء . لقد عاد بالصيد ولكن . . . بعد أن تعلم الشيء الكثير . لقد تعلم عدم المخاطرة بنفسه ضد الحيوان الكاسر ، وضرورة الاقتراب منه بحذر وهدوء؛ وعدم صلاحية فروع الأشجار؛ والاطمئنان إلى صلابة الأحجار ولاسيما أحجار الصوان بعد صقلها وتهذيبها

هكذا كان يتعلم الإنسان الأول نتيجة لدوافع غريزية وبطريقة عملية حصل خلالها على تلك المعلومات التي اندمجت في خبرته الحسية لعل بعضها ذلك الجرح الذي لم يندمل أو ذلك الصيد الذي لم ينته من التهامه بعد

هذه الطريقة التي تعلم بها الإنسان الأول والتي تتمشى مع التراث الإنساني هي الطريقة الطبيعية التي اصطلح العلماء على تسميتها بالطريقة النفسية

الطريقة النفسية إذن طريقة بسيطة عادية تتمشى مع ميول الإنسان الغريزية . ولذلك كان سلوكه نحو التعلم فيها تلقائيا أو فلنقل سلوكا غريزيا ؛ له ما للسلوك الغريزي من كل مظاهر التلقائية والتغير والرغبة في تحقيق الهدف المنشود . وتتضح هذه المظاهر فعلا في المثال السابق . فالإنسان الأول حين قام ليصطاد من الغابة قام من تلقاء نفسه ولم يأمره بذلك أحد ، ولم يكن سلوكه أثناء الصيد جامدا ثابتا بل كان متغيرا متحولا . لقد استعمل يديه أولا بجرح ، واستعمل فرع الشجرة فقصف ، فلجأ إلى الأحجار يصقلها ويشحذها حتى نجح . وكان ذلك التغير في سلوكه مرتبطا بتحقيق هدفه المقصود ألا وهو الصيد المنشود . وكان لسلوكه هدف واضح منذ البداية هو الحصول على ذلك الحيوان . ولقد انتهى السلوك بالحصول على الغاية المنشودة

وهو لم ينته تماما لأن الخبرة التي حصل عليها من جراء ذلك

السلوك هى خبرة حسية دائمة. لن ينسى قط تلك الطريقة الناجحة فى الصيد . لقد جربها بنفسه فكيف ينسى ؟ ! لم ينقطع سلوكه تماما ما دامت هذه الخبرة الحسية موجودة وقائمة ، إذ أن سلوكه سيظهر من جديد محاولات أخرى للصيد تستخدم فيها تلك الطريقة أى تستخدم فيها الخبرة الماضية ويستفاد منها فى الحصول على صيد أكثر بطريقة أضمن وأسهل وأسرع

تلك هى مميزات الطريقة النفسية التى تعلم بها الإنسان الأول هذه الطريقة التى نعم التعليم على يديها بخير كثير حتى عمت الإنسانية خلال القرون والأجيال وازدادت معارف الإنسان . اكتشفت المعادن فحلت الحربة النحاسية محل أختها الصوانية الحجرية ، ثم ظهرت الطلقة النارية فحلت محل الحربة النحاسية . وظهر المعلم فى المدرسة ووكل إليه أمر تعليم الناشئين هؤلاء الذين لا يعلمون من أمر دنياهم ولا من سبيلهم فيها شيئاً . ولم يتردد المعلم فى التعليم . ولكن كيف لجأ إلى نفس الطريقة التى لجأ إليها الأب حين سأله ابنه وهما خارجان للصيد معاً :

كيف أصطاد ؟ ففكر الأب وقال فى نفسه : « أأترك ولدى ليقع فى الخطأ الذى وقعت فيه من قبل فيجرحه الحيوان وقد يقتله أم أزوده بخبرتى حتى ينتصر بطريقتى ؟ لا ؛ سأنصحه وسأسدد خطاه . عند ذلك التفت إلى ولده قائلا : خذ هذا الحجر واضرب به من بعيد ؛ أو خذ هذه الطعنة واطعن بها ، فهكذا أوصانا الآباء عن الأجداد

هذه هى الطريقة وما أسهلها . يعطيه خلاصة المجهود الذى بذله فى سنوات ، والذى بذله الآباء والأجداد فى آلاف السنين ، يعطيه إياه خلال كلمة أو كلمتين . ألا يكون بهذا قد وفر عليه ضياع جهوده فى تجارب فاشلة قد وقع هو فيها من قبل ؟

تلك هى الطريقة المنطقية ، أو هكذا اصطلح العلماء على تسميتها ، هى طريقة إعطاء الخلاصة والنتائج مباشرة للناشئين . ولو نظرنا إلى موقف الابن بعد أن تسلم الحربة وبعد أن طلب إليه أن لا يصطاد إلا بها لوجدنا أنه فى حاجة إلى توضيح . لقد طلب إليه ألا يصطاد إلا بها وبوده لو ترك لحربته فيصطاد بيديه ويهجم بجسمه هو ليشعر فى قرارة نفسه أنه قد قيد بطريقة لا يفهمها ولا يدرى السر فى إصرار والده على ضرورة التمسك بها . وهو مضطر للعمل بها إرضاء للسلطة العليا الممثلة فى شخص أبيه ؛ فكأنه لم يقبل العمل بهذه الطريقة إلا لإرضاء السلطة العليـــا ؛ ولذلك يظل عمله بها قائما وباقيا ما دامت هذه السلطة موجودة لتعد عليه حركاته وسكناته وتراقب كل تصرفاته ، ولذلك تراه يتخفف من العمل بما أمر به حين يخلو إلى نفسه وحين يبتعد عن سلطة الرقباء ، يخالف ما تعلمه فى الحال ويبدأ فى الصيد بطريقة أخرى تنسجم مع ميوله وأهوائه . . سيجرب الوسيلة التى كان آباؤه قد جربوها من قبل ، وسيصيبه مثل ما أصابهم من ضر ، وعند ذلك يبدأ فى إدراك الحكمة فيما علمه إياه أبوه ، ويفهم السر فى تمسكه وإصراره ، والحكمة فى إرشاده وتعاليمه

وهكذا يمكن أن نجمل موقف المتعلم بالطريقة المنطقية بذكر المظاهر الآتية : —

١ — إزوراره عن التعلم أو انعدام الرغبة لديه

٢ — تقيده التام بما يراد له أن يتعلمه

٣ — عدم قبوله للتعلم إلا مضطرا وتحت ضغط عوامل خارجية

٤ — العجز عن الفهم أو عن إدراك الحكمة فيما يتعلمه

٥ — إن التعليم غير ثابت ويزول بزوال المؤثرات الخارجية المرتبطة به

٦ عدم ثبوت ذلك التعليم إلا إذا حدثت خبرة حسية يمر فيها المتعلم مصادفة فتؤدى إلى إعطاء المعلومات الشكلية السابقة قيمتها الحقيقية

ويلاحظ أن الخبرة العملية هى عودة إلى الطريقة النفسية ، وأن مرور المتعلم خلالها وممارسته لها قد غيرت من سلوكه السابق نحو عملية التعليم وحولته من الإدبار إلى الإقبال ، كما حولت عملية التعليم ذاتها من الفشل إلى النجاح

حقا إن الطريقة النفسية بعد أن قارنا بينها وبين الطريقة المنطقية تبدو وثيقة الصلة بالرسالة التى يجب على المربى القيام بها

البقية فى العدد القادم

كمال السيد درويش
ليسانسيه الآداب بامتياز — دبلوم معهد التربية العالى
مدرس بالرمل الثانوية